حنان

(قصّة قصيرة)

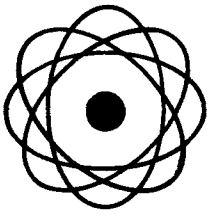

هاشم غرايبة

يوماً ما كنت طالباً ، وذات مرة تأخر الاستاذ عن موعد المحاضرة ، وكان أحد الطلاب (من زلم السلطة) يجلس على منصة الاستاذ مراهناً على أنّ الاستاذ لن يحضر لأنه مطرود من الجامعة !! . . لا أحد منّا أخذ الأمر بجدية .

دخل الاستاذ وعلى وجهه تعبير غريب ، انسحب الطالب الوقح إلى مكانه فبادره الاستاذ قائلاً : غداً تتخرج يا بني وقد تصير ضابطاً في جهاز القمع هنا ، وقد تصبر وتصير وزيراً أو تختصر الطريق وتقود رتلاً من الدبابات وتعلن نفسك رئيساً للبلاد ، مسألة بسيطة ، أما ان تأخذ مكاني فذلك يتطلب منك تعباً كثيراً ، . . . كرسي الرئاسة أو الوزارة أقرب لك بكثير من هذا الكرسي .

لجمنا حديثه المباشر عن السلطة (السنيّة) في البلاد ، فتابع قائلاً : في بلادنا لعبة ليست نظيفة اسمها لعبة الكراسي ، لذا رفضت أن ألعبها . . . لقد كنت عميداً و (لأسباب أمنية) نُزّلت إلى رئيس قسم ، ولنفس الاسباب صرت مدرساً فقط وقبلت لأني أعتقد أنّ الكرسي الحقيقي هو الذي يُبتنى في ضمير الناس . . .

مسح وجهه المتغضن بمنديله وأطرق حزيناً ، فتلمسنا رؤوسنا هلعاً ، رفع وجهه الحزين وطلب منّا أن نجمع ما أعطانا من محاضرات خلال الفصل ففعلنا ذلك ذاهلين ويتملكنا شعور من يسارع في الى التخلص من مادة خطرة . رمى دافترنا في سلة المهملات وقال : كلّ هذا لا قيمة له . . . لم أعد مدرسكم .

كنّا نحبّه ، استهجنا ما يفعل ويقول . . . قال أجرؤ نا : ماذا ألم يعد ٢٧ تكراري إلى مالا نهاية[1] ، تحسس رقبته وقال : لا ، قلنا : ولمَ ؟ . قال : (لأسباب قمعية) .

*

كنّا قد ابتعدنا عن طفولتنا منذ سنين ، لذا لم نفهم ، سمعنا وأطعنا لكنّا تفلسفنا : المسألة عادية ، تسلّط وقمع في الاسرة ، ومثلها في المدرسة والجامعة ، والدولة تقمع الجميع ، واستاذنا الفاضل خرج على هذا الهارموني المتناغم في أوركسترا القمع . . . طوبى لمن يلتفّ يجلده . ثم نسينا كما ينسى الكبار عادة .

*

يوماً ما صرت طفلاً ، دخلت حنان وقالت لنا ، لم أعد معلمتكم . قلنا باحتجاج . . لماذا ؟ قالت فصلت . . (لأسباب أمنية) .

فهمنا ، لذلك بكينا كثيراً وصرخنا ولعنّا الحكومة ، وأمسكنا بها حتى كادت ملابسها تتمزق . . . ثم ذابت بين أيدينا عطراً وتسربت من مسامّ جلودنا واستقرت نقشاً في صدورنا .

أقسمنا يومها أن ما حدث سيبقى سرّاً إلى أن ننتصر لحنان .

*

عندما غابت حنان مشيت وحيداً ، ومن حزني وقعت على التراب وكفّ الحمام عن الهديل .

حين أفقت وجدت نفسي كبيراً وقوياً مثل جلجامش[2] .

*

حنان كانت تعلمنا أناشيد جميلة ، ويوم خبأناها في صدورنا خوفاً عليها من عيون الحكومة ، جادت قرائحنا بنشيدٍ لا نقوله إلّا همساً . . نحن أصحاب السرّ :

حنـــان الحنونـــة
تحـب الطفـولـة
تجلّ الـوطـــن

*

حنان لم تكن معلمة ، إنها الفرحة التي تشع من عيون الأطفال مع أول لقاءٍ لهم بالمدرسة !

● هل يفرح الأطفال بافتتاح المدارس ؟ !

انك لا بد ستفرح اذا صرت طفلاً ووجدت حناناً هناك . . الدرس بحضورها يستحيل ضوءاً يملأ القلب سعادة .

● الدرس هو العصا والجد وصوت المعلم المستبد .

لو رأيت ابتسامات الأطفال ، مثل سماءٍ صافية ، لأدركت أن الدرس جميلٌ مثل ريف مفعمٍ بالخضرة .

● التعليم ، أين مكانه فيما تدعي ؟

المعلومات ألوان حية يلتهمها الأطفال فتستحيل بهجة تغمر الروح .

● هِمْ ، إنّ وراء الأكمة ما وراءها . . .

صدقني انها تمنح الدرس خفة ضاحكة ، وتمنحهم نوعاً من الحنان الشامل ، فيجد الطفل نفسه راغباً في تقبيل الشمس .

● في الأمر سِرّ ، كان لا بدّ من التحقيق .

*

قال : ما اسمك ؟

ـ حنان .

اسمك الحقيقي !

حنان !

*

قال : انت متهمة بتحريض الأطفال على الدولة .

ـ أنا أحاول أن أعطيهم الأمان وأخلق لديهم الحافز على الدراسة .

قال : ألهذا تكثرين من التربيت على رؤوس الأطفال ؟

ـ وسيلة لنفي العصا .

(حلو) اليوم تنفين العصا عنهم وغداً تضعيها بأيديهم !

قالت : أنا أضع بأيديهم الحلوى .

قال : . . . نحن نعرف كل شيء ، لا تحاولي التملص ، مثلاً : لقد وقع تلميذٌ أثناء اللعب بالساحة وركضت نحوه ، ومسحت جروحه ، وغسلت كفّيه ، وقبلتيه .

(صمت) . . .

اكمل ـ لأكون دقيقاً ومقنعاً . . . (قلّب أوراقاً على مكتبه) . . حدث هذا يوم الثلاثاء ٩ تشرين ثاني الساعة العاشرة والربع . . . الطفل عمره سبع سنوات ، اسمه . . . لا ، لا ، هذه معلومات تخصّ الدائرة . . .

قاطعته : هل هذه تهمة ؟ !

قال بعصبية : هل حصل هذا أم لا ؟ . . . أجيبي .

ـ نعم .

(. . جميل أمسكنا أول الخيط ، ستعترف . .) لكن لماذا قبلت الطفل ؟

قالت : لأني أحبّه .

ـ وقاحة .

ردّت : لم أرَ مثلها .

ثار : اخرسي . (صفعها) . . . (ابتلعت الألم ولم يبد عليها أي انفعال) .

أكمل : اتنكرين أن ذلك كان بقصد افساده وتحريضه على الأنظمة المرعيّة ؟

قالت : أنا أساعد الأطفال لأن في ذلك سعادتي ، أنا أحاول أن أجعل حياة الناس من حولي أكثر سهولة وسعادة .

قهقه صاخباً : اذن انت ملاك .

ـ أترك لك التسمية .

(قال بعد صمت وبحلقة وقحة في وجه حنان) .

ـ هل تتعهدين بالكف عن أسلوبك القديم والالتزام بما نرسمه لكِ .

قالت : امتنع عن الاجابة .

ـ لماذا ؟

ـ لأن قيمي ومفاهيمي مبنية على غير ذلك ولا أستطيع تغييرها .

قال : اعتبري نفسك مفصولة من العمل .

قالت : يبدو لي انكم تأخرتم ثلاثة شهور .

قال : ماكرة ، كنت تدّعين قبل قليل أنك سعيدة بتعاملك مع الأطفال .

ـ نعم أنا سعيدة بالثلاثة شهور التي قضيتها معهم . لكني أرثي لأولئك الذين ولدوا فاقدين لهذه النعمة .

ـ برا . برا .

*

الألم شعور انساني هام ، وهو حق لا يستطيع ألدّ الأعداء أن يحرمنا منه ، ولكن حين يريدون أن يقرأوه ندماً على وجوهنا فيجب أن نخفيه . ((هذا ما قالته حنان في آخر لقاء لها مع الأطفال) .

*

بعد مدّة استدعيت حنان مرة ثانية .

قال : حنان

كوني معي

غيري اسمك

فأطهّم لك عربة من اللازورد والذهب .

عجلاتها نضار .

وزينتها حجارة كريمة .

قالت : ما أنت الا باب خلفي .

لا يصدّ ريحاً باردة

قارٌ يلوث من يحمله .

قربة ينزف ماؤها على حاملها .

حذاء يوقع أرضاً من يلبسه[٣] .

رفع يده ليصفعها ، لكن الأطفال كانوا قد كبروا .

عمّان

(١) اشارة إلى بطليموس الذي يسمي شهيد √٢ ذلك لانه اكتشف التكرار الكسري √٢ لا نهائي فعدّ ذلك في عصره كفراً وزندقة وحمل في مركب والقي به في البحر .

(٢) كلكامش : ملك مدينة أوروك القديمة الذي كان ثلثه بشر وثلثاه آلهة .

(٣) الشعر بتصرف عن حوار بين جلجامش وعشتار في الملحمة البابلية الشهيرة .